ابن عساكر

في رحلة النابلسي

رياض عبد الحميد مراد

- ١ -

قسم النابلسي (١١٤٣ هـ/١٧٣٠ م) رحلته الكبرى المسماة (الحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز) الى ثلاثة أقسام :

الاول : في الجولان في البلاد الشامية ٠

والثاني : في الاقبال على البقاع المصرية٠

والثالث : في التشرف بالوصول الى الاقطار الحجازية ٠

بدأ رحلته في ١١٠٥/١/١ هـ - ١٦٩٣/٩/٢ م بزيارة الجامع الاموي ومقبرة باب الصغير ومقبرة مرج الدحداح ثم مقام الشيخ محي الدين ثم انطلق من دمشق متجها نحو الشمال مارا بالنبك وحمص وحماه،ثميتجه نحو مصياف فجبلة فاللاذقية ، ثم يعود الى جبلةمتجها نحو الجنوبالى طرابلسفبيروت فعكةفنابلس فالقدسفالرملة واللد فعسقلان فغزة وهي آخر القسم الاول ٠

وانطلق الركب ثانية من خانيونسمبتدئا القسم الثاني في البلاد المصريةمارا بالعريش وبلبيس والقاهرة وهناك يقيم ما يقرب من سبعين يوما وبها ينتهي القسم الثاني من الرحلة ٠

وأما القسم الثالث فينطلق من منزلـه قايتباي فالسويس متجها شرقا نحو البحر الاحمر ثم جنوبا مسايرا البحر الاحمر الى أن يصل الى ينبع وحينئذ يغير اتجاهه نحو الشرق ليصل الى المدينة المنورة فيقيم فيها حوالي تسعين يوما ثم يسير جنوبا الى مكة المكرمة فيبقى بها حوالي عشرين يوما يعود بعدها حتى يصل دمشق بعد أن يقضي ٣٨٨ يوما في رحلته الكبرى هذه ٠

- ٢ -

والسؤال الذي يلحّ على البحث هنا : ما قيمة هذه الرحلة ؟ لا من الجانب الجغرافي فحسب بل من جميع جوانب الثقافة التي كانت سائدة في عصر المؤلف .

وفي محاولتنا للاجابة على هذا السؤال نلاحظ أن هذه الرحلة ضمت كل علوم عصرها حتى استحقت أن تعطى صفة الموسوعية لان المؤلف يهتم بكل ما يعرض له في طريقه مما يراه بعينه فيصفه ، أو مما ينقله عن كتب أخرى ، أو مما ينشده من شعره ، أو مما ينشده من شعر غيره ، أو مما يسأل عنه فيجيب عليه .

وعلى هذا فان من يقرأ هذه الرحلة يجد علوم عصر المؤلف كلها متجمعة فيها من أدب بنثره وشعره الى تصوف الى فقه الى تاريخ الى تراجم الى عادات اجتماعية الى جغرافية الى كتب .

وسأكتفي في مقالي هذا بالحديث عن جانب واحد من هذه الجوانب وهو الكتب ، على أن أعود ان شاء الله لاعالج كل جانب من هذه الجوانب في مقال مستقل .

ان هذه الموسوعة تبدو بشكل واضح في مؤلفات النابلسي التي يعددها لنا في رحلته هذه(١) ، وذلك بمناسبة حديثه عن اجازة أجاز بها الشيخ رضوان بن يوسف الصباغ المصري الدمياطي المفتي بثغر صيدا . وهي تتجاوز الثلاث مئة كتاب بين رسالة ومجلد وعدة مجلدات ، وتتنوع في فنها بين التصوف والحديث الشريف والعقائد والفقه والتجويد والتاريخ والادب .

ويظن المرء أن وراء هذه المؤلفات الكثيرة مكتبة ضخمة ورثها المؤلف عن أسرته ، ولكن الواقع أن ذلك كله لم يكن وانما كان نتيجة تحصيل شخصي وجهد ذاتي وعصامية فردية ، أما مكتبة أبيه وجده ، وقد كانا عالمين ، فانه يخبرنا أنها ضاعت اما بالسرقة أو بالبيع (٢) . ولذلك فانه يطير فرحا حين يخبره نجم الدين الرملي ورفيقه شمس الدين أنهما وجدا شرحا لجده على الجامع الصغير وديوانا لوالده (٣) .

والجميل في الامر أننا نشهد في رحلته هذه ميلاد كتب ورسائل ولّدتها الحاجة وأوجدتها الظروف :

ففي القدس سأله مصطفى بن أبي الوفا سؤالا عن التفضيل بين الانبياء فألف له رسالة في الرد على سؤاله هذا أسماها : (صفوة الاصفياء في بيان التفضيل بين الانبياء)(٤) .

وفي مصر طلب منه زين العابدين البكري أن يخمّس قصيدة والده محمد البكري والمسماة (قبضة النور) والتي مطلعها :

قبضة النور من قديم ارتنا
في جميع الشؤون قبضا وبسطا

فقال النابلسي مخمّسا :

أيها الطلعة التي اخذتنا
بسناها عنا وقد أعدمتنا

ثم لما في معارج القرب فتنـــا

قبضة النور منقديم أرتنـــــا

في جميع الشؤون قبضـــا وبسطا

ثم طلب منه أن يشرحها فشرحهــا فــي رسالة سماها (نفخة الصور ونفحة الزهور في الكلام على أبيات قبضة النور)(٥) ٠

- ٣ -

وحديث النابلسي عن كتب غيره لا يقـل أهمية عن كتبه نفسه ، بل ان كل كتاب يسمع به أو يراه يحظى منه باهتمام زائد ، ينبع من حب العالم للكتب ، هذا الحبالذي جعله ينقل لنا أسماء كتب لم نسمع بها ولم نرها ، ومن هنا تنبع أهمية حديثه عـن الكتب ٠

وسأنقل للقارىء الكتب التي ذكرهــــا النابلسي متجاوزا نوعين مـــن الكتب وهي كثيرة :

الاول : المصادر التي ينقل منها ويعتمـد عليها في تراجمه وشروحه ٠

والثاني : الكتب المعروفـــة المطبوعـــة المتداولة كطبقات الشعراني وكتابالرياض النضرة وشرح الرسالة القشيرية وشـــرح عينية بن مالك ابن سينا للمناوي ومـــا الـــى ذلـك ٠

ففي كتب الادب يذكر لنا شرحا للبـــردة لمحمد بن رضي الدين بن يوسف بن أبـــي اللطف المقدسي الذي وجده عند السيد هبة الله أفندي في حمص (٦) ، كما يذكر لنا أيضا رحلة للشريشـي (٧) (٦١٩ هـ / ١٢٢٣ م) - شارح مقامات الحريري - وقرأ فيهـــا أن الشريشي مر على بغداد وحضر وعظ لابــي الفرج بن الجوزي كما أنه دخل دمشق الشام والحرمين ٠ وأبدى النابلسي اعجابه من وجود خط والده على تلك النسخة ٠ ويذكر في اللغة رسالة في أسماء تمر المدينة (٨) مرتبة علـى حروف المعجم لفتح الدين الزرندي ، وينقل لنا هذه الرسالة كاملة في رحلته ٠

ويطلعه أحد أصدقائه في المدينة المنورة ، واسمه محمود الكردي ، على تفسير كبير له يقع في ثمان مجلدات ، ويريه المجلد الاخضر منها فيجده تفسيرا جامعا للاعراب والحكم والاحكام (٩) ٠

ورأى كذلك شرحا لحجازي الواعظ علـى الجامع الصغير للسيوطي ووصفه بأنه أكبر من شرح الشيخ المناوي وأعظم منه (١٠) ٠

وطلب منه صديق فيدمشق أن يفتشلهعن كتاب الاحاديث القدسية للمناوي فوجده - بعد طول بحث - عند أحد الكتبة ، فأخضره وأمر أحد جماعته بكتابته (١١) ٠

وأراه زين العابدين البكري في مصـــر : « كتابا كبيرا جدا في مجلد واحد اسمه قانون الدنيا يذكر فيه مؤلفه ابتداء خلق الدنيـــا بالتفصيل ثم يذكر الاقاليم السبعة وما خرج عنها ويذكر البلدان جميعها وما اشتملـت عليه من الاماكن والانهار والبحار ، ومـــن خرج منها من العلماء والشعراء وغيرهـم ، ويترجمهم بذكر مصنفاتهم وفضائلهـــم ووفياتهم ومواليدهم الى غير ذلك ممـــا

ذكرة »(١٢) وأخبره زين العابدين أن هـذا الكتاب ليس الا نسخة واحدة فيما يعلم ذهب بها بعض الوزراء الى بلاد الروم استكتبها في مصر من نسخته ٠

وأهم كتاب ذكره النابلسي في رحلتـه هذه هو كتاب تاريخ ابن عساكر ٠

ففي المدينة المنورة يزور الحرم الشريف ويطلّع على مكتبته وما فيها من نفائس المخطوطات ، ومن بين هذه النفائس يجد نسخة متفرقة الاجزاء من تاريخمدينةدمشق

ولنقرأ معا ان شئتم ما يقوله النابلسي في ذلك :

[٣٧٠ ب] « ٠٠٠ وبتنا تلك الليلة حتى أصبحنا في يوم الثلاثاء تمام الثلاث مئة ، وهو اليوم الخامس من ذي القعدة ، فذهبنا وقت العصر الى الحرم الشريف ، وفتحوا لنا باب خزانة الكتب التي وقفها المرحوم السيد محمد البرزنجـي الحسينـي الشهرزوري المدني ، فوجدنا فيها كتبا كثيرة في علـوم شتى ، منها الجامع الكبير في الحديث للجلال السيوطي رحمه الله في خمس مجلدات كبار، ومنها جزء ثالث في مجلد ضخم من شـرح سنن ابن ماجه للشيخ الدميري رحمـه الله تعالى ، ومنها تاريخ دمشق للحافظ ابـن عساكر رحمه الله تعالى ، والموجـود منـه غير المكرر ثلاثة وتسعون جزءا ، كل جـزء مجلد على حدة ، نحو الثلاثة أو الاربعـة كراريس بالقطع الكامل [٣٧١] وهي أجزاء متفرقة منها الجزء الاول والجزء الاخيـر ، ومنها ما هو بعد المئة وما بعد المئتين وبعد الثلاث مئة وبعد الاربع مئة وبعد الخمس مئة ، وجملة مجلدات أجزاء الكتاب خمس مئة وسبعون مجلدا ٠ قال في المجلد الاخير : تم الجزء السبعون والخمس مئة وهو آخر الاجزاء جميعها وهذا آخر ما تيسر جمعه من هذا الكتاب والله الموفق فيـه للرشـاد والصواب ٠ وقال في ابتداء الجزء الاول بعد البسملة : الحمد لله خالق الارواح ٠٠٠٠ » ثم ينقل مقدمة الجزء الاول نقلا حرفيا ٠

ولن أقف عند المعلومات الجانبية التـي مرت في هذا النص ، من مثل معرفة مؤسس مكتبة الحرم الشريف ، والاطلاع على كتب أخرى منها ما هو مخطوط ومنها ما هـو ضائع ٠ وانما الذي يهمني هنا هو تاريخ ابن عساكر دون غيره ٠ وهو يثير في أذهاننا نقطتين وهما: تجزئة هذهالنسخة أولا ومكان وجودها ثانيا ٠

ولئن أغفل النابلسي ذكر الناسخ أو تاريخ نسخه الا أنه ذكر لنا شيئا لا يقل أهميـة عن ذلك وهو تجزئة الكتاب ، فقال انها في خمس مئة وسبعين مجلدا ٠

والمعروف أن القاسم ابن المصنف قـد نسخ نسخة اعتمد فيها على ما كتبه أبـوه وجعلها في خمس مئة وسبعين جزءا ، وهـي نسخة واحدة ووحيدة ٠ والنسخ التي جاءت بعدهـا حملت تجزئـات أخرى ٠ أمـا التجزئة الى خمس مئة وسبعين جزءا فلم تكن الا في النسخة الاولى نسخة الابن ٠

وليست نسخة الحرم الشريف هذه هـي نسخة الابن الثانية لان تلك كانت في سبع مئة جزء وهذه في خمس مئة وسبعين جزءا ٠

كما أنها ليست نسخة البرزالي لسببين : الاول التجزئة التي تحدثنا عنها نظرا لان

البرزالي نقل عن النسخة الثانية لا عن الاولى ، والسبب الثاني أن خطها المغربي مميز لو رآه النابلسي لاشار في حديثه عن النسخة الى شيء من ذلك .

وهي ليست كذلك احدى نسختي الظاهرية اللتين كتبتا بأمر من سليمان باشا العظم وأسعد باشا العظم والي دمشق لسبب بسيط هو أن احدى هاتين النسختين كتبت سنة ١١١٨ هـ أي بعد رحلة النابلسي بما يقرب من ثلاثة عشر عاما ، والثانية كتبت سنة ١١٦٧ هـ أي بعد الرحلة بما يقرب من اثنين وستين عاما .

فنسخة الحرم اذن ليست الا نسخة القاسم الاولى التي قرأها على أبيه في مجالس خاصة وذلك بعد أن نقلها من مسودات أبيه .
فاذا صح هذا جاز لنا أن ننتقل الى النقطة الثانية وهي : أين هذه النسخة ؟

ان الفهارس الصادرة عن المملكة العربية السعودية ، وبخاصة فهرس مكتبات المدينة المنورة لا تبين عن وجود نسخة ابن عساكر هذه لا في المدينة المنورة ولا في المملكة كلها ، وكل ما وصل الينا منها جزء صغير فيمن اسمه خالد ورد من الرياض ، أما هذه الاجزاء الكثيرة فاننا لا نعرف عنها أي شيء .

وأما في مكتبات العالم فعندنا نسخة تشبهها كثيرا في تجزئتها وفي عدد أجزائها الصغيرة الكثيرة ، وهي نسخة الازهر ، والمعروف أن نسخة الازهر هذه قسمان : قسم بخط القاسم والقسم الثاني بخط البرزالي ، فاذا استبعدنا خط البرزالي ، يتبقى لدينا بضع مجلدات وأجزاء صغيرة مجلدة كل جزء على حدة ، وبشكل يتتابع أحيانا ولا يفعل في أحيان أخرى .

فهل هذه نسخة الحرم أم هي متممتها ؟

فاذا كانت هي هي نسخة الحرم فانه لم يضع علينا شيء وان كانت متممتها ، وهذا ما أرجحه بسبب وجود الجزء الاخير في نسخة الحرم وخلو نسخة الازهر منه ، فاننا نأمل أن نعثر على نسخة الازهر هذه ليصبح العمل في تحقيق التاريخ سهلا يسيرا بعد توافر نسخة أصل خالية من الخطأ والبتر والتحريف .

---

(١) انظر الورقة ٨٠ ب — ٨٢ ب من نسخة الظاهرية ذات الرقم ٣٢٢٦ وسأعتمد في كل الحالاتي التالية .
(٢) الورقة ١٠٢ أ
(٣) الورقة ١٠٢ .
(٤) الورقة ١١٦ أ و ب
(٥) الورقة ١٨٦ ب .
(٦) انظر الورقة ٦٢ أ
(٧) الورقة ٣٤٣ ب
(٨) الورقة ٣٢٤ أ و ب
(٩) الورقة ٣٣١ أ
(١٠) الورقة ٢٤١ أ
(١١) الورقة ١٩٢ أ
(١٢) الورقة ٢٢٢ ب — ٢٢٣ أ